ليس من السهل تنفيذ إصلاحات اقتصادية مؤثرة وطويلة الأمد. وغالبا ما تظهر ثمار الإصلاح بعد سنوات، بينما يكون الشعور بالمشقة المصاحبة فوريا. وفي هذه السلسلة الجديدة بعنوان "في خندق العمل"، يصف صناع السياسات ما يواجهونه من تحديات وهم يخوضون مسيرة الإصلاح بهدف تعزيز النمو ورفع الإنتاجية وتوفير المزيد من الوظائف.

الصورة: PETER ANDREWS/REUTERS/NEWSCOM

فرصة سانحة

ليزيك بالسيروفيتش يوضح أهمية التحرك السريع عندما يكون المواطنون مستعدين لتقبل التغيير.

ليزيك بالسيروفيتش، مصمم تجربة التحول البولندي إلى اقتصاد السوق الحرة، بدأ في سبعينات القرن الماضي دراسة سبل إصلاح النظام البولندي الذي كان يتبع النمط السوفييتي آنذاك. وقد عين لاحقا مستشارا لحركة التضامن التي نظمتها النقابات العمالية. ولمدة عامين متتالين بدءا من ١٩٨٩، شغل منصب وزير المالية ونائب رئيس الوزراء تحت قيادة تاديوس مازوفيتسكي الذي ترأس أول حكومة غير شيوعية في أوروبا الشرقية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وشغل بالسيروفيتش تلك المناصب مجددا خلال الفترة ١٩٩٧–٢٠٠٠، وعمل رئيسا للبنك المركزي من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٧. وبالسيروفيتش حاصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من كلية التخطيط والإحصاء المركزية في وارسو (التي تعرف حاليا باسم كلية وارسو للاقتصاد) حيث يعمل بالتدريس حتى الآن.

وفي هذه المقابلة مع كريس ويليش من مجلة التمويل والتنمية، يتذكر بالسيروفيتش الصعوبات التي واجهته في المرة الأولى التي تولى فيها منصب وزير المالية، ويحكي كيف أنه حاول التغلب على العقبات من خلال استغلال حيز محدود من "السياسات الاستثنائية".

التمويل والتنمية: في سبعينات القرن الماضي، جمعت فريقا من خبراء الاقتصاد لدراسة سبل إصلاح النظام الاشتراكي القائم. وقلت إن هذا العمل كان بمثابة هواية لأن آفاق الإصلاح بدت محدودة حينها. ثم تم تطبيق الأحكام العرفية في ديسمبر ١٩٨١. وماذا حدث بعد ذلك؟

بالسيروفيتش: عقب تطبيق الأحكام العرفية، لم يكن هناك أي أمل في تنفيذ إصلاحات كبرى. ... ولكننا استمررنا في العمل، ولكن دون أي قيود في هذه المرة. فقد درسنا الخصخصة والتحرير الاقتصادي وإصلاحات المالية العامة وغيرها. ... ولم نكن نفترض بالطبع أن هذا الجهد سيؤتي ثماره خلال حياتنا.

التمويل والتنمية: عُقدت فيما بعد ما عرف بمحادثات الطاولة المستديرة بين حركة التضامن والحكومة الشيوعية، وأجريت انتخابات لاحقا أفرزت حكومة جديدة بقيادة مازوفيتسكي. وقلت وقتها إنك تقبل العمل ضمن هذه الحكومة، ولكن بشروط معينة. ماذا كانت تلك الشروط؟

بالسيروفيتش: أولا، أن يكون الإصلاح الاقتصادي واسع النطاق وسريعا وعميقا. وثانيا، أن أدخل الحكومة أنا ومجموعة من الأفراد، أي كفريق. وثالثا، أن أترأس بصفتي نائب رئيس الوزراء اللجنة الاقتصادية المنبثقة عن مجلس الوزراء بوصفها أداة تنسيق بين جميع الوزارات الاقتصادية. وفي الوقت نفسه، قبلت منصب وزير المالية. ورابعا، أن يؤخذ برأيي فيمن يتولى الوزارات الاقتصادية.

التمويل والتنمية: وماذا كان تقييمك للوضع الاقتصادي؟

بالسيروفيتش: كان الوضع مزريا، وكان الناتج في تناقص مستمر. وكان البلد يعاني من حالة من التضخم المفرط. وكان الدين الأجنبي ضخما للغاية. ولكنني لم أدرك إلا بعد تولي المنصب أن الوضع كان أسوأ من ذلك لأنني اكتشفت وجود ديون محلية خفية.

التمويل والتنمية: كيف اخترت استراتيجيتك؟

بالسيروفيتش: في البداية كنا نعلم أن أي بلد يعاني من تضخم مفرط يتعين عليه الإسراع في تقليص معدل طباعة النقود. وثانيا، كنا نعلم من واقع دراستنا للإصلاحات السابقة في ظل النظم الاشتراكية وفي بعض البلدان الأخرى أيضا—ولكن في النظم الاشتراكية خصوصا—أن الجرعة الأولى من التغييرات يجب أن تكون ضخمة للغاية وسريعة للغاية. [وكنا نعلم أيضا] أن التغييرات ينبغي ألا يتم تنفيذها على نحو متسلسل. فالتغييرات الكبرى يجب أن تبدأ جميعها في الوقت نفسه كمجموعة.

التمويل والتنمية: لماذا كان ذلك مهما للغاية؟

بالسيروفيتش: تعقب التطورات المفاجئة كالتي شهدتها بولندا عام ١٩٨٩ فترة قصيرة أسميها فترة "السياسات الاستثنائية"، ويمكن أن تسميها فرصة إذا شئت، يكون فيها الناس أكثر استعدادا لقبول التغييرات العميقة. وكان الاستغلال الأمثل لهذه المنحة التاريخية هو أن نتحرك

بسرعة كبيرة على عدة جبهات ... وهو ما حدث في بولندا. فقد قمنا بتحقيق استقرار اقتصادي سريع للغاية وتحرير اقتصادي واسع النطاق تضمن القضاء على جميع التكتلات الاحتكارية المحلية. ...

التمويل والتنمية: ماذا كان التحدي الأكثر إلحاحا الذي واجهته في المرة الأولى التي توليت فيها منصبك؟

بالسيروفيتش: كانت المشكلة الأساسية تكمن في وقف التضخم المفرط. وكان ذلك سهلا من الناحية الفنية. فقد كان علينا الإبطاء في طباعة النقود، لذلك كان تحديا ماليا في الجزء الأكبر منه. وفي الوقت نفسه، طبقنا مفهوم استقلالية البنك المركزي.

التمويل والتنمية: ماذا عن العملة؟ لم تكن قابلة للتحويل في هذا الوقت، وكانت حركة صرف الدولار الأمريكي نشطة في السوق السوداء.

بالسيروفيتش: يتمثل أحد أهم الإصلاحات التي تم تنفيذها في توحيد سعر الصرف والسماح بتحويل العملة، وكان ذلك ثورة في حد ذاته نظرا لأن المواطنين أصبح لهم الحق في استيراد السلع بموجب القانون. وساهم ذلك في تعزيز المنافسة في جانب العرض.

التمويل والتنمية: كيف اخترت نظام العملة؟

بالسيروفيتش: فضلنا تطبيق نظام سعر صرف ثابت لبعض الوقت، وكان تحديد سعر الصرف أمرا صعبا للغاية. وكان لصندوق النقد الدولي رأي في هذا الصدد وقد أخذت به آنذاك، وهو أن بولندا تحتاج إلى ركيزة اسمية لوقف التضخم المفرط. وقد كان من الصعب للغاية تحديد المستوى الذي ينبغي تثبيت قيمة الزلوتي البولندي عنده—أي سعر الصرف. ولكن كان علينا أخذ القرار.

التمويل والتنمية: كنت جديدا على المعترك السياسي. ماذا كان رأيك في هذا التحول؟

بالسيروفيتش: لم أدخل المجال السياسي من أجل السياسة. فقد طُلب مني تنفيذ مهمة معينة. وكانت لهذه المهمة أهمية تاريخية. ولم نكن في حاجة إلى قدر كبير من التواصل والإقناع الشعبي نظرا لأننا كنا نحظى بأغلبية برلمانية—أي حركة التضامن—وكان إرجاء التغيير لتقديم تفسيرات عديدة مجرد إهدار لوقت ثمين للغاية. لذلك كان تنفيذ الإصلاحات سهلا للغاية من الناحية السياسية.

التمويل والتنمية: فقد مليون شخص وظائفهم. هل كنت قلقا بشأن التكلفة السياسية؟

بالسيروفيتش: هذه مجرد أسطورة متداولة، فأولا يربط الناس التكلفة الاجتماعية بالإصلاحات، بينما يؤدي إرجاء الإصلاحات إلى تكلفة اجتماعية أكبر. ... وثانيا، فيما يتعلق بالبطالة، يجب أن تتذكر أن نسبة كبيرة من البطالة المقنعة كانت موجودة في المؤسسات الاشتراكية. وجزء من هذه البطالة المقنعة تحول إلى بطالة سافرة. وثالثا، كان قانون إعانة البطالة ضعيفا للغاية في البداية.

التمويل والتنمية: ما الإنجاز الأهم الذي تحقق من الإصلاحات التي شهدتها بولندا؟

بالسيروفيتش: تخلفت بولندا اقتصاديا عن ركب البلدان الغربية خلال الثلاثمائة عام الأخيرة، وكانت الفجوة تتزايد لا سيما عقب الحرب العالمية الثانية. ولم تبدأ بولندا في اللحاق بالركب إلا بفضل الإصلاحات السوقية التي تم تنفيذها عقب ١٩٨٩. وقد أحرزنا تقدما كبيرا من حوالي ٣٠٪ من نصيب الفرد من الدخل في ألمانيا في عام ١٩٨٩ إلى حوالي ٦٠٪. وهذه هي المرة الأولى في تاريخ بولندا خلال الثلاثمائة عام الأخيرة التي شهد فيها البلد تقاربا سريعا مع الغرب.

التمويل والتنمية: هل كنت قلقا من أن يربط الناخبون بين الإصلاحات والضغوط الاقتصادية؟

بالسيروفيتش: خلال العامين الأوليين، لم نشهد أي احتجاجات اجتماعية حادة، وكانت هناك احتجاجات سياسية طفيفة. وبمرور الوقت، وكما هو الحال في أي بلد، كان هناك بعض السياسيين الذين حاولوا كسب رأسمال سياسي من انتقاد ما أسموه بالإصلاحات الاقتصادية الصارمة أو غير الإنسانية.

التمويل والتنمية: هل ثمة إجراءات لم تتخذها وكنت تتمنى تنفيذها؟

بالسيروفيتش: لو تسنت لي الفرصة للعمل مع مزيد من الأشخاص، لأجريت مزيدا من التغييرات في النظام الاجتماعي المتوارث، إلى جانب إصلاح نظام معاشات التقاعد ونظام الرعاية الصحية.

التمويل والتنمية: هل تمثل تجربتك أهمية بالنسبة لصناع السياسات في البلدان الأخرى في الوقت الحالي؟

بالسيروفيتش: توجد اقتصادات شبه اشتراكية عديدة تسيطر عليها الدولة. ... والأوضاع في هذه البلدان مماثلة إلى حد ما للوضع الذي ساد بولندا وغيرها من البلدان الاشتراكية عام ١٩٨٩.

التمويل والتنمية: عندما تتذكر هذه الحقبة، كيف ترى الدور الذي اضطلعت به؟

بالسيروفيتش: حتى في بداية عام ١٩٨٩، لم أكن أحلم أن بولندا ستكون حرة وأنني سأضطلع بدور في هذا التحول. ولم يكن ذلك سهلا على الإطلاق، ولكن إذا تجاوز الواقع حدود أحلامك فلا تستطيع أن تشتكي بالطبع. FD